

في نقطة وهمية يلتقي الرسام والروائي

الناقد المغربي شرف الدين ماجدولين يبحث في علاقة العين باللسان



الرسام والروائي كلاهما ينظر من الزاوية ذاتها (لوحة للفنان أحمد قليج)

في حدود الوطن المتروك، وإنما يهاجر في الذاكرة ويسكن الجوارح في الشتات، بحيث يغدو جزءاً من هوية الجسد والروح، وهو ما يلتمسه الناقد في روايات المنفيين السوريين الجدد، مثل لينسا هويان الحسن وعبدالله مكسور وإبراهيم الجيبين، في مقابل الأعمال الفنية للتشكيليين السوريين الموزعين بين المهجر، في بيروت وعمان والقاهرة، وفي لندن ومدريد ونيويورك وغيرها. بينما يتوقف ماجدولين بالدرس والتحليل عند الأعمال التشكيلية الأخيرة للفنان أحمد قليج، المقيم في بيروت، وهي أعمال تقوم بتمثيل هذا الخراب المترحل وإعادة تشكيله، بينما يواصل ماجدولين تناول الأعمال الروائية والفنية، واقتفاء أثرها وتامل مضمورها، عبر "فأض من العمل التأويلي الذي يمارسه الناقد"، وفق التحديد الذي وضعه كاترين أوريكيوني في كتابها "المضمر"، وكما أنجز ذلك شرف الدين ماجدولين في كتابه الجديد "الرسام والروائي: الصورة والإنتاج الأثر".

بيكاسو، التي حضرت في الكثير من الروايات والسير الذاتية والرحلات والمذكرات الشخصية العربية المعاصرة. ويذكرنا ذاكرتنا المخزنة بالحروب، من مثاليا "للاحتجاج، وتشخيص الألم العائلي، المجرى من تفاصيله البشرية الظاهرة". ويتبع المؤلف حضور "غرنيكا" في كتاب "الرسام والروائي" لفرانسوا تريبلسي، حيث يقدم مشاهد متناظرة من حرب بيروت، والتي تكاد تنعكس على أديم لوحة بيكاسو، بينما يقدم الكاتب اللبناني ما يشبه الروبوتاج للحرب والرعب، إبان تلك المرحلة العصيبة.

كما يدرس الكتاب حضور الغرنيكا في رواية "أقل من رضوى" لرضوى عاشور، وفي سيرة "زمن المتاهة" للكاتبة اللبنانية يمنى العيد، عن الحرب اللبنانية أيضاً، وفي الرحلة المعاصرة "مدني وأهوائي" للروائية العراقية لطيفة

ولا يوجد رسام رسم لوحاته على قمة جبل. بنفس الطريقة يكون بناء الرواية مقترنا بالبحث عن نقطة وهمية بحيث يمكن من خلالها الإشراف على المشهد بالكامل". انطلاقاً من فكرة الإطالة من أفق شامق على مشهد، يرى مؤلف الكتاب أن مسودات الروائي شأنها شأن التخطيطات الأولية للفنان التشكيلي لا بد لها مما أسماه ماجدولين "نقطة بداية تلهم اليد، في الكتابة والرسم على حد سواء". وإلى حد الآن، يبدو أن العلاقة بين الروائي والرسام إنما تقوم على التشابه والتناظر، أكثر مما تقوم على الاختلاف والتهاجر.

سرد اللوحة

في الفصل الثالث من الكتاب، يقترح علينا ماجدولين جولة في النصوص الروائية العربية التي تمثلت أعمالاً تشكيلة شهيرة، والحالة هاته لن يكون هناك مثال أفضل من "غرنيكا"

في "كراسة الخط والرسم" يقدم ساراماغو حكاية فنان تشكيلي لم يوفق في رسم بورتريه للسيد "س"، ليقرر إعادة المحاولة. وهنا اختار هذا الفنان أن يحكي لنا قصته مع الرسم والبورتريهات والموديلات التي يرسمها. ولعل حكاية الرسام والروائي والناقد هاته مدخل مناسب يسعنا حقاً في قراءة كتاب "الرسام والروائي" للناقد المغربي شرف الدين ماجدولين.

عن المشترك بينهما والمؤلف والمختلف فيهما. ذلك أن التفكير النقدي بصدد الفن، كما يرى إدغار موران، غالباً ما يستند إلى الثنائيات، وعليها يبني مقدماته ومصادراته.

ويمضي ماجدولين في تعميق هذه الثنائية، ما بين الرسام والروائي، والبحث عن الثنائيات الأخرى المتناسلة منها، وفي مقدمة ذلك العين واللسان. فالعين هي مرجعية الرسام، واللسان مرجعية الروائي، يقول الناقد. وبينما تستند اللغة إلى معرفة مرجعية، تتعلم العين عبر الاكتشاف، إذ لا يحتاج ناقد الفن إلى تعلم الإسبانية، مثلاً، لتلقي وقراءة عمل لبيكاسو أو غويا، وهكذا.

هذا التقابل ما بين العين واللسان هو الذي قاد مؤلف الكتاب إلى رصد فروق نقدية أخرى، ومنها الفارق بين الكتابة عن العمل الفني والكتابة عن الرواية. وهناك أيضاً ثنائية البصري والمكتوب، وثنائية الشغ والحاء، التي صاغها المؤلف لبيان الفرق بين الكتابة الروائية ورسم اللوحة، الذي لا يشغلنا بالبحث عن معنى يتوي تحت اللحاء، أكثر مما يشغلنا جانبها المرئي المحسوس. وهناك ثنائية العابر والمقيم، حيث يجعلنا النص الروائي نعبر نحو معنى نتأوله، مقابل العمل الفني المقيم في ذاته.

وهنا، يرى صاحب مقولة "التأويل النقدي"، أننا "لا نحتاج دوماً في أن نكون مؤولين حين نواجه الأعمال الفنية". بينما ترتفع هذه الثنائيات في محاور أخرى من الكتاب، ومنها الحديث عن الوصف الروائي، الذي يلتقي فيه للمشاهد والعالم المخيلة، والشاهد عند المؤلف هاهنا هو المشهد الإلهام "لرواية" "الإنجيل برواية يسوع المسيح" لخورساراماغو أيضاً.

لا يلتقي الروائي والرسام في تقاطعات وحسب، بل يقفان معا في وضعية متماثلة، تشكل موقعا للرؤية وزاوية للنظر. يستحضر ماجدولين هاهنا ما أورده أورهان باموك في كتابه "الروائي الساذج والحساس"، حيث "يشبه الروائي الرسام من الصبيحين القدماء، الذين يتسلقون الجبال من أجل النقاط إحساس مناظر طبيعية واسعة ومكان المراقبة، الذي يشرف على كل شيء من الأعلى، بنظرة واحدة، والذي يجعل تلك اللوحات ممكنة، هو التخيّل،

مخلص الصغير
كاتب مغربي



من "غرنيكا" بيكاسو إلى سرديات الحرب وتشكيلاتها في لبنان والعراق، وصولاً إلى الدياسبورا السورية المعاصرة، عبر روايات ولوحات المبدعين السوريين في المنافي والشتات، يترحل الناقد المغربي شرف الدين ماجدولين ما بين مشاهد روائية وتشكيلية يعمها الخراب ويفجعها الدمار.

الروائي والرسام لا يلتقيان في تقاطعات فقط، بل يقفان معا في وضعية متماثلة، تشكل موقعا للرؤية وزاوية للنظر

إنها جمالية الحرب، كما يسميها جون بويريار، وهو يتحدث عن مجتمعنا الراهن الذي يقف في وضع المتفرج على نفسه، وهو ينزع نحو نهايته المحتومة. هكذا، تحاصر "جماليات القبح" هذا الكتاب، مثلما يحاصر القبح هذا العالم الموبوء، في زمن الجائحة.

تقاطعات وتماثل

منذ مقدمة الكتاب، اختار شرف الدين ماجدولين المقارنة بين عمل الرسام وعمل الروائي، عبر تقنية "تبادل الأدوار"، حيث "يسعى الرسام في لوحاته لأن يقدم حكاية، لتلقط العين تفاصيلها، وتعيد صياغتها". وفي مقابل ذلك، فإن كاتب الرواية، وعبر مته السرد "يرسم شخصيات ويصور فضاءات وأزمنة ومواقف وعواطف وأفكار". وبعبارة المؤلف، فإن الروائي إنما "يشكل لوحات لفظية". كما يبينها الناقد إلى أن ثمة معجماً مشتركاً بين الروائي والرسام، يمتد من: "الصورة" إلى "إنتاج الأثر"، كما هو العنوان الفرعي للكتاب، مروراً بمفاهيم تتنقل اشتغال المبدعين معا، من تشكيل واسلوب وإطار وموضوع وفكرة وذات وتصوير وتشخيص ووصف وظاهر ومضمر..

تقتضي المقارنة وجود طرفين متقابلين ومتقاطعين أيضاً، يبحث الناقد

مفكر تونسي يفكك اللاوعي الديني والثقافي

لاكان مثل الرغبة، والنقص، والأخر/الأنثى، والمتعة، من أجل تفكيك وإعادة بناء قضية "الأصل" في الإسلام، بسبب مركزية مثل هذه المسألة جزئياً بالنسبة للحركات الإسلامية المتنوعة وبسبب كونها جزئياً موضوع رواية "آيات شيطانية" لسلمان رشدي المثيرة للجدل عام 1988، وكذلك موضوع كتاب "اللبلة القلقة" لبن سلامة، عام 1988.

فتحي بن سلامة في كتابه «التحليل النفسي وتحدي الإسلام» يستفيد من جاك لاكان ويثير جدلاً فكرياً كبيراً

تكمّن أهمية توظيف مفاهيم لاكان لتحليل ونقد النزعة الأصولية في كون التحليل النفسي اللاكاني يركز على فك شفرات السجل الرمزي، والقيم الثقافية والاجتماعية والدينية، والأعراف وهلمّ جزءاً. وفي الواقع فإن مسألة الأصل في مخيال المتمسكين بنزعة الأصل والأصولية مرتبط بدون وعي غالباً بالموذج الموجود في الماضي وجراء ذلك فإن فكرة الزمنية تختزل تعسفاً في هذا البعد الواحد مما يجمد لدى هؤلاء حركة التاريخ ويعزز عندها النقص.

ففي تلك الرسالة التي وجهها إلى إمه من الفندق الكبير بمدينة سوسة في 15 مارس من تلك السنة قال يونغ "لا أدري ماذا تقول لي أفريقيا حقاً، ولكنها تتكلم تخيلي شمساً رائعة، وهواء نقياً كما في الجبال العالية، وبحرا أزرق لم تری طبعته الأوروبية لا تتوقف عند فرويد أيضاً كما يرى الدارس نوري غانا بل فإن المحلل النفسي السويسري الشهير، وأحد معاصري ومساعدي فرويد، وهو كارل غوستاف يونغ قد كتب نصاً مهماً، ورسالة إلى زوجته "إمه" يتضمنان رأيه المعتدل في الإسلام وفي المجتمع التونسي المسلم، وقد حدث هذا بالضبط أثناء زيارته لتونس عبر الجزائر.

تحليلية نفسية، ويضرب مثلاً لدعم رأيه بقوله إن التاريخ يبين أن علاقة التحليل النفسي بالدين عامة وبالإسلام خاصة قوية وخاصة منذ فرويد. وفي هذا الصدد ينبغي التذكير أيضاً أن علاقة التحليل النفسي في طبعته الأوروبية لا تتوقف عند فرويد أيضاً كما يرى الدارس نوري غانا بل فإن المحلل النفسي السويسري الشهير، وأحد معاصري ومساعدي فرويد، وهو كارل غوستاف يونغ قد كتب نصاً مهماً، ورسالة إلى زوجته "إمه" يتضمنان رأيه المعتدل في الإسلام وفي المجتمع التونسي المسلم، وقد حدث هذا بالضبط أثناء زيارته لتونس عبر الجزائر.

لاشك أن المهم هنا هو التركيز بعبارة على مناقشة نوري غانا لمعالم توظيف بن سلامة لنظريات جاك لاكان لتحليل نزعة النكوص إلى الأصل لدى الحركات الإسلامية وليس الاستغراق في قصي السجل حول تاريخ البدايات المبكرة لعلاقة التحليل النفسي الأوروبي بالإسلام. ويرى نوري غانا أن فتحي بن سلامة "يجند مفاهيم جاك

واللبناني الراحل عدنان حب الله في مجال استيعاب وهضم وتوظيف نظريات ومفاهيم لاكان في الطليعة، والسبب في ذلك يعود إلى كون الدكتور صفوان من تلاميذ لاكان كما يعد أيضاً أحد أقطاب الفكر الفلسفي والتحليل النفسي في فرنسا والغرب بشكل عام.

رغم أهمية إنتاج كل من صفوان والراحل عدنان حب الله فإن تركيزي هنا هو حول حوار نوري غانا مع أطروحات كتاب "التحليل النفسي وتحدي الإسلام" لفتحي بن سلامة. وفي هذا الخصوص يكتب نوري غانا منذ البداية بالتأكيد أن فتحي بن سلامة ليس المحلل النفسي الوحيد الذي تناول الإسلام من وجهة نظر

وشارك فيه عدد من الدارسين والناقد. إن أهم ما حفزني لاقتناء هذا الكتاب هو مساهمة نوري غانا الكيفية التي بموجبهما تشغل نظريات ومفاهيم مفتاحية لجاك لاكان في مجالات السينما، والسياسة، والدراسات العرقية، والميديا، والدراسات الخاصة بالمعطوبين، والإسلام.

قبل النظر بعبارة في القضية المحورية التي تركّز عليها مناقشة نوري غانا التحليلية النفسية من منظور المحلل النفسي جاك لاكان لكتاب "التحليل النفسي وتحدي الإسلام" لفتحي بن سلامة، ألا وهي مسألة الأصل أو الأصول في القول إن انفتاح العالم العربي على كشوف التحليل النفسي لجاك لاكان وجهازه النظري وعلى كيف تعمل مفاهيمه الاستراتيجية، مثل الإقصاء والمتعة والخيالي والرمزي والواقعي والرغبة وغيرها في مجالات الثقافة والدين والأدب والفن وفي مختلف أشكال التعبير الرمزي، لا يزال نخبوا على نطاق ضيق جداً حتى الآن ويعود ذلك ربما إلى عدم ترجمة أبرز أعمال لاكان الكثيرة والمعقدة إلى اللغة العربية وجراء غموض أسلوبه ولغته الاصطلاحية.

وخلافاً لهذا نجد جهود المحللين النفسيين المصري مصطفى صفوان،

أزراح عمر
كاتب جزائري



بات واضحاً أن كتاب المحلل النفسي التونسي فتحي بن سلامة الموسوم بـ"التحليل النفسي وتحدي الإسلام" الذي ترجمه إلى اللغة الإنجليزية روبرت بونونو وصدر عن منشورات جامعة منيسوتا الأميركية، لا يزال يثير النقاش وبذلك اكتسب مكانة معتبرة في أوروبا وخاصة في بريطانيا.

وعن هذا الكتاب قال المفكر البريطاني المرموق جيفري بينغتون "إنه كتاب لامع ويفتح منظورات جديدة للفهم النفسي للدين"، ثم أضاف مبرزاً أن "قراءة بن سلامة الصارمة للإسلامية تعرض لازمة الإسلام نفسه هي مثال جيد للتحليل النفسي التحليلي في أفضل أحواله".

وفي الأيام القليلة الماضية استرعت انتباهي دراسة مهمة حول كتاب فتحي سلامة المذكور أنفاً وأنجزها الناقد والدارس التونسي نوري غانا، وقد تضمنها كتاب يحمل عنوان "بعد جاك لاكان". وقد صدر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عن منشورات جامعة كامبريدج البريطانية بإشراف أنجي موكرجي الأستاذة بجامعة أكسفورد،



فتحي بن سلامة.. درس الأصل والأصولية واستلهم لاكان في الثقافة العربية